

التناسق بين اللفظ والمعنى في العربية

— بقلم : د. محمد السيد علي بلاسي —

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

فمثال هذا من الكلمات التي يوجد فيها الحرف أولاً، قول العرب : خضم، وقضم. فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والفتاء وما كان نحوهما من المأكول الـرطب والقضم للصلب اليابس، نحو قضيـمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك. فاختاروا الحاء - لرقها - للـرطب، والـقاف - لـصلابتها - للـليابس، حذواً لـسموـع الأصوات على محسوس الأحداث^(٢) :

ومثال الكلمات التي يوجد فيها الحرف وسطاً، قولهـم : الوسيلة، والـوصـيلة، فالـصاد - كـما نـرى - أـقوـى صـوتـاً منـ السـين ؟ لماـ فيهاـ منـ الاستـعلـاءـ، والـوصـيلةـ أـقوـى منـ الوـسـيلةـ ؟ وـذلكـ أنـ التـوـسلـ لـيـسـ لـهـ عـصـمةـ الـوـصـلـ وـالـصـلـةـ، بلـ الـصـلـةـ أـصـلـهـاـ منـ اـتـصالـ الشـيءـ بـالـشـيءـ، وـمـاسـتـهـ لـهـ، وـكـونـهـ فيـ أـكـثـرـ الـأـحـوـالـ بـعـضـاـ لـهـ، كـاتـصالـ الـأـعـضـاءـ بـالـإـنـسـانـ، وـهـيـ أـبـعـاضـهـ، وـنـحـوـ ذـلـكـ، وـالـتـوـسلـ معـنىـ يـضـعـفـ وـيـصـغـرـ أـنـ يـكـوـنـ التـوـسلـ جـزـءـاـ أـوـ كـالـجزـءـ منـ التـوـسلـ إـلـيـهـ، وـهـذـاـ وـاـضـعـ. فـجـعـلـوـ الصـادـ لـقوـتهاـ، لـلـمعـنـىـ الـأـقـوىـ، وـالـسـينـ لـضـعـفـهاـ، لـلـمعـنـىـ الـأـضـعـفـ^(٣).

ومثال الكلمات التي يوجد فيها الحرف آخرـاـ قولهـم : النـضـحـ، وـالـنـضـخـ. فالـحـاءـ، وـالـخـاءـ، منـ مـخـرـجـ واحدـ، وـهـوـ الـحـلـقـ، وـيـتـقـانـ فـيـ مـعـظـمـ الصـفـاتـ. وـالـكـلـمـاتـ تـدـلـانـ عـلـىـ سـيـلـانـ المـاءـ، لـكـنـ بـدـرـجـةـ مـتـفـاوـتـةـ، فـالـنـضـحـ سـيـلـانـ ضـعـيفـ، بـيـنـاـ النـضـخـ فـورـانـ

لـقدـ لـاحـظـ عـلـمـاءـ الـعـرـبـ قـدـيـمـاـ، سـراـ عـجـيـباـ مـنـ أـسـرـارـ فـصـاحـتـهاـ، يـكـمـنـ فـيـ دـقـةـ مـنـاسـبـةـ حـرـوفـهاـ لـعـانـهـاـ، عـلـىـ غـيرـ مـاـ هـوـ مـأـلـوفـ فـيـ سـائـرـ الـلـغـاتـ ! فـقـدـ لـمـحـواـ أـنـ فـيـ كـلـ حـرـفـ مـنـ حـرـوفـ الـعـرـبـ قـيـمـةـ تـعـبـيرـةـ مـوـحـيـةـ، وـلـمـ يـعـنـهـ كـوـنـ هـذـاـ حـرـفـ صـوـتاـ، قـدـرـ مـاـ يـعـنـهـمـ مـنـ صـوـتـ هـذـاـ حـرـفـ أـنـ مـعـبرـ عـنـ غـرـضـ، وـأـنـ الـكـلـمـةـ الـعـرـبـيـةـ مـرـكـبـةـ مـنـ هـذـهـ الـمـادـةـ الـصـوـتـيـةـ الـتـيـ يـكـمـنـ حـلـ أـجـزـائـهـ إـلـىـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـأـحـرـفـ الـدـوـالـ الـمـعـرـبـةـ، فـكـلـ حـرـفـ مـنـهـ يـسـتـقـلـ بـيـانـ مـعـنـىـ خـاصـ مـادـاـ يـسـتـقـلـ بـإـحـدـاـتـ صـوـتـ مـعـينـ. وـكـلـ حـرـفـ لـهـ ظـلـ وـإـشـعـاعـ، مـنـ حـيـثـ كـانـ لـكـلـ حـرـفـ صـدـىـ وـإـيقـاعـ^(٤) !

وـسـوـفـ تـحـدـثـ عـنـ حـالـاتـ ثـلـاثـةـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ ؟ـ مـنـهـاـ يـتـبـيـنـ كـلـ هـذـاـ بـجـلـاءـ :ـ

أـولاـ :ـ مـنـاسـبـةـ الـلـفـظـ لـلـمـعـنـىـ

وـنـرـىـ ذـلـكـ بـوـضـوحـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ أـمـرـيـنـ :ـ أــ مـنـاسـبـةـ مـادـةـ الـلـفـظـ لـلـمـعـنـىـ :ـ وـنـشـاهـدـ ذـلـكـ فـيـ أـحـوـالـ ثـلـاثـةـ :ـ

1ــ مـقـابـلـةـ الـأـلـفـاظـ بـمـاـ يـشـاكـلـ أـصـوـاتـهـ مـنـ الـأـحـدـاـتـ :ـ وـنـعـنـيـ بـالـلـفـظـ هـنـاـ الـحـرـفـ. فـلـكـلـ حـرـفـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ قـيـمـةـ تـعـبـيرـةـ هـامـةـ فـيـ كـلـمـتـهـ، فـهـوـ مـنـاسـبـ لـمـاـ وـضـعـ لـهـ مـنـ حدـثـ، سـوـاءـ كـانـ ذـلـكـ حـرـفـ فـيـ أـولـ الـكـلـمـةـ، أـوـ وـسـطـهـاـ، أـوـ آخـرـهـ.

عملاً أو صوتاً، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حسماً^(٣).

3 - ازدحام الحروف المجموعة في الصابط (لدن طرت) إذا مازجتمن «الفاء» على التقدم والتأخير : فأكثر أحواها ومجموع معانها أنها للوهن والضعف. وقد فطن ابن جنني لهذه الظاهرة اللغوية العجيبة ؛ حيث أثبت من واقع هذا : صلة اللفظ بمعناه، مهما تغير موقعه من الكلمة بتقليل البناء. وقد مثل لهذا بـ : (الدالف) للشيخ الضعيف و(التالف) للشيء الفاسد، و(الطليف) للمجان، و(الطفن) لما أشرف خارجاً عن البناء، وهو إلى الضعف؛ لأنّه ليست له قوة الراكب الأساسي والأصل، و(الدنه) للمريض، و(الطرف) لطرف الشيء، وهو أضعف قطعاً من قلبه وأوسطه. قال الله سبحانه : «أو لم يروا أنا نأتي الأرض نقاصها من أطرافها» (الرعد : من الآية ٤١)، ومنه (الفرد) لأن المنفرد إلى الضعف والهلاك ما هو؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المرء كثير بأخيه»، (رواه ابن أبي الدنيا)^(٤).

ب - مناسبة هيئة اللفظ للمعنى : ويبدو ذلك واضحاً في ارتباط بعض الصيغ اللغوية بمعانها الموضوعة لها، وذلك كما يلي :

1 - ما كان حكاية للأصوات من مضاعف الثلاثي أو الرباعي، مثل : صر الجندب، وصر صر البازي. وكذلك المصادر الرباعية، مثل : الرزعزة، والقعقعة، والقلقلة، والصلصلة، فهي تأتي للتكرير، فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر^(٥).

2 - ما جاء من المصادر على وزن «الفعلان» فإنها تأتي للاضطراب والحركة ؛ نظراً لتابع الحركات فيها فناسب ذلك تتابع الأحداث، نحو :

الماء ؛ ولذا اختبرت الحاء - لرقتها - للماء الضعيف، والخاء - لغلوظتها - لما هو أقوى منه، وعليه قوله تعالى : «فِيهَا عَيْنَانٌ نَضَاجْتَانٌ» (الرحمن ٦٦) بمعنى : فوارتان بالماء لا تنقطعان^(٦).

يقول علامة اللغة ابن جنني : «فهذا ونحوه أمر إذا أنت أتيته من بابه، وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله، أعطاك مقاده، وأركبك ذروته، وجلا عليك بهجاته ومحاسنه. وإن أنت تناكرته، وقلت : هذا أمر منتشر، ومذهب صعب موغر، حرمت نفسك لذته، وسددت عليها باب الحظوة به...»^(٧).

2 - تقسيم حروف الكلمة على تقسيم الأحداث : وذلك أن العرب قد تضييف إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها الترتيب، حيث تقدم ما يضاهي أول الحدث، وتؤخر ما يضاهي آخره، وتتوسيط ما يضاهي أو سلطه ؛ سوياً للحروف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب.

مثال ذلك : جر الشيء بجره، قدموا الجيم ؛ لأنّها حرف شديد، وأول الجر بمثابة على الجار وال مجرور جميماً، ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر، وكرروها مع ذلك في نفسها ؛ وذلك لأن الشيء إذا جر على الأرض في غالب الأمر، اهتز عليها واضطرب، صاعداً عنها، ونازلاً إليها، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتمة والقلق، فكانت الراء ؛ لما فيها من التكرير، ولأنّها أيضاً قد كررت في نفسها في (جر) و(جررت) أوقف لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها^(٨).

فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المترنة المتقاربة في المعاني ؛ فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأمس لما هو أدنى وأقل وأخف

وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنبا (مريم : 25). فالهمسة والماء من مخرج واحد هو الحلق، والمعنى متقارب، وهو التحرير، إلا أن الحركة مختلفة : فالأَرْ تحريرك ماله حركة، ويحتاج إلى جهد كالعقل، فتحريركها صعب. والهز تحريرك ما لا حركة له مما لا عقل له كالجمادات، مثل : الجذع، وساق الشجرة ونحوها. فأُنَي بالهمسة مع المعنى القوي، وبالماء مع المعنى الضعيف⁽²²⁾.

ومثاله في وسط الكلمة : القرمة : وهي الفقرة تجز على أنف البعير. و قريب منه : قلمت أظفارى؛ لأن هذا انتفاصل للظفر، وذلك انتفاصل للجلد. فاللام في قلمت أخت الراء في القرمة، والعلمان متقاربان⁽²³⁾.

ومثاله في آخر الكلمة : كا في المواد (ج ب ل) و(ج ب ن) و(ج ب ر) لتقاربها في موضع واحد وهو : الالشام والتماسك. فالجليل فيه معنى الشدة والقوة والالشام، وجبن الرجل إذا استمسك وتوقف وتجمع، والجبن المأكول فيه تماسك العناصر وتجمعتها والثامها، وجبرت العظم ونحوه إذا لأمته فالتأم وتماسكت أجزاءه. فتقاربت الحروف هنا ؛ نظرا لتقارب المعاني، مع دلالتها على معنى عام يدخل تحت طيه الجميع⁽²⁴⁾.

2 - حرفين : وقد تقع المضارعة في الأصل الواحد بالحروفين، نحو قولهم : السحيل، والصهيل. فذاك من (س ح ل) وهذا من (ص ه ل)، والصاد أخت السين كما أن الهاء أخت الحاء، وكلها صوت، إلا أن الأول للبلغ أما الصوت الثاني فللدرس، فأعطي لكل ما يناسبه من الحروف من حيث الشدة والضعف⁽²⁵⁾.

3 - في ثلاثة حروف : وقد تجاوز العرب الحرف والحرفين إلى أن ضارعوا بالأصول الثلاثة :

الغليان والغثيان. وكذلك ما جاء على وزن «الفَعْلَى» في المصادر والصفات، فإنها تدل على السرعة مثل : امرأة بشكى - إذا كانت خفيفة سريعة اليدين. فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال.

3 - المصادر الرباعية المضافة فإنها تأتي للتكرير، نحو : القلقلة، والجرجرة، والزعزة.

4 - الأفعال التي تجيء على وزن «فَعْل» فإنها تدل على تكرير الفعل، مثل : قطع، وكسر، وغلق.

5 - تكرير لام الفعل وعينه يدل على المبالغة، يقال : بغير عراك - إذا كان قويا غليظا.

6 - مورد على وزن «است فعل» فإنه يأتي للطلب، نحو : استسى، واستطعم، واستوهب. فالهمسة والسين والتاء زوائد وردت بعدها الأصول : (الفاء والعين واللام)، وهذا موافق للمعنى ؛ وذلك لأن طلب الفعل والتماسه والسعى فيه يتقدم، ثم تقع الإجابة إليه، فلما تبع أفعال الإجابة أفعال الطلب، كذلك تبع حروف الأصل الحروف الزائدة، التي وضعت للاتصال والمسألة⁽²⁶⁾.

ثانيا : تقارب اللفظ لتقارب المعنى:
ومن أسرار الروعة في لغتنا الحالية، أن المعاني فيها لها ما يناسبها من الألفاظ المعبرة عنها، وأن حكمة العربي اقتضت أن يضع الصوت مشابها لمعناه، وأحيانا يعبر العربي بطائفة من الألفاظ عن معنى واحد، اختلفت درجاته، فنلاحظ تقارب هذه الألفاظ في الحروف تبعا لتقارب معاناتها⁽²⁷⁾. وهذا التقارب يكون متحققا في :

1 - حرف واحد : مثاله في أول الكلمة : أَرْ، وهَرْ، قال تعالى : **﴿أَلَمْ ترَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزِّعُهُمْ أَرْأَاهُمْ﴾** (مريم : 83) بمعنى : تزعجهم وتقلصهم، أو تحرّكهم إلى المعاصي. وقال عز وجل :

- ١ - تكرار عين الفعل مع الفصل بينهما، كقولهم : أعشب المكان، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا : اعشوشب ؛ فدل هذا على أن تكثير اللفظ لتكثير المعنى، إذ أن اعشوشب أقوى من أعشب.
- ٢ - تكرار عين الفعل مع عدم الفصل، نحو : قطع، فإذا أرادوا كثرة التقطيع قالوا : قطع، قوّة اللفظ دلالة على قوّة المعنى.
- ٣ - زيادة تاء الافتعال مع المجرد، نحو : قدر واقتدر. فاقتدر أقوى معنى من قوله : قدر ؛ لذا جيء باسم الفاعل من اقتدر لا من قدر في قول الله سبحانه : ﴿أَخْذُ عَزِيزًا مُقْتَدِرًا﴾ (القمر من الآية 42) حيث إن مقتدر هنا أقوى من قادر ؛ من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ. وعد ابن جني كسب واكتسب في قول الله تعالى : ﴿هُنَّا مَا كَسَبُوا وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبُوا﴾ (البقرة : من الآية 286) من هذا القبيل، إذ يقول : وتأويل ذلك أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصرغ ؛ وذلك لقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشَرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجِدُ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ (الأنعام : من الآية 160). أفلأ ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها، صغر الواحد إلى العشرة، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بذاتها، لم تختصر إلى الجزء عنها ؛ فعلم بذلك قوّة فعل السيئة على فعل الحسنة، ولما كان الأمر كذلك ؛ عظم قدرها، وفحض لفظ العبارة عنها ؛ فقبل : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فزيد في لفظ فعل السيئة، وانتقص من لفظ فعل الحسنة ؛ لما ذكرناه^(١٩).
- ٤ - العدول عن «فعيل» إلى «فُعال»، كتطويل وطوال، إلا أن طوال أبلغ معنى ومبالغة من طويل. فالعدول عن معتاد الصيغة نحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى.

الفاء والعين واللام. فقالوا : عصر الشيء، وقالوا : أزله، إذا حبسه، والعصر ضرب من الحبس، وذلك من (ع ص ر) وهذا من (أ ز ل) والعين أخت المهمزة، والصاد أخت الرأي، والراء أخت اللام. وقالوا : قفز، كما قالوا : كبس، وذلك أن القافر إذا استقر على الأرض كبسها.

وقالوا : أفل، كما قالوا : غبر ؛ لأن أفل : غاب، والغابر غائب أيضا، فذاك من (أ ف ل) وهذا من (غ ب ر)، فالهمزة أخت العين، والفاء أخت الباء، واللام أخت الراء^(٢٠).

وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفرض اللغة، وإنما يقى من يشيره ويبحث عن مكوناته، فإن أنت رأيت شيئاً من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه، ولا يتبعك على ما أوردناه، فأحد أمور ثلاثة :

- ١) - إما أن تكون لم تعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه.
- ٢) - أو لأن هذه اللغة أصولاً وأوائل تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا - كما قال سيوبيه.
- ٣) - أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر^(٢١).

ثالثاً : قوّة اللفظ لقوّة المعنى :
فالعربية لغة غاية في الدقة، الألفاظ فيها أدلة للمعنى، فإذا زيد فيها شيء أو جب ذلك زيادة المعنى به، إذ أن زيادة المبني - في العربية - تدل على زيادة المعنى. كما أنه إذا اخترف بعض الصيغ فيها عن وضعه، دل ذلك على حدث متعدد حدث غير الأول، دلالة على أن قوّة اللفظ لقوّة المعنى.
ونرى كل هذا بوضوح في صور كثيرة في العربية منها :

وستظل العربية شاحنة مليئة بأسرارها تنتظر من يغوص ليبحث عن هذه التراث الكامنة فيها ليجمعها. وأبدأ سعيها الفصحي لتجنى :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاني !!؟

٥ - الدول عن « فعل » إلى « فعل » مثل :
رجل جميل، ووضيء، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا : « ضاء، وجمال »، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه.

وبعد : فهذا سرّ من أسرار اللغة كشف عنه علامة اللغة ابن جني، وتبعه العلماء من بعده.



الحواشي :

- (١) - د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ١٤٢ - بتصرف -، ط. العاشرة ١٩٨٣ م - دار العلم للملائين بيروت.
- (٢) ابن جني : *الخصائص*، تحقيق محمد علي التجار، ١٥٧/٢ - ١٥٨ - بتصرف يسir - ط ٣ سنة ١٤٠٣ هـ، عالم الكتب بيروت.
- (٣) المصدر السابق : ١٦٠/٢.
- (٤) د. عبد الغفار حامد هلال : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٠١، ط ٢ سنة ١٤٠١ هـ - المكتب الحديث للطباعة والنشر بالقاهرة. وقارن بالخصوص : ١٥٨/٢.
- (٥) ابن جني : *الخصائص* ٢/١٦٢.
- (٦) المصدر السابق : ١٦٢/٢، ١٦٤.
- (٧) السيوطي : المزهر، تحقيق محمد جاد المولى وآخرين، ٥٣/١، ط ٣ - دار التراث بالقاهرة.
- (٨) د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة، ص ١٤٦ - بتصرف - وقارن بالخصوص : ١٦٦/٢.
- (٩) د. عبد الغفار حامد هلال : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١١٢. وقارن بالخصوص : ١٥٣، ١٥٢/٢.
- (١٠) ابن جني : *الخصائص*، ١٥٣-١٥٣/٢، فراجعه تجد مزيداً من التفصيل.
- (١١) د. عبد الغفار حامد هلال : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١١٣ - بتصرف -.
- (١٢) المرجع السابق : ص ١٠١، ١٠٢. وقارن بالخصوص : ١٤٦/٢.
- (١٣) ابن جني : *الخصائص*، ٢ - ١٤٧/٢ - بتصرف يسir -.
- (١٤) د. علي عبد الواحد واي : فقه اللغة، ص ١٨٦ - بتصرف -، ط. دار نهضة مصر. وقارن بالخصوص : ١٤٩/٢.
- (١٥) د. عبد الغفار حامد هلال : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٠٣. وقارن بالخصوص : ١٤٩/٢.
- (١٦) ابن جني : *الخصائص* : ١٥٠/٢، ١٥٢ - بتصرف -.
- (١٧) المصدر السابق : ١٥٢/٢، ١٦٤.
- (١٨) راجع هذه الصور بالتفصيل في *الخصوص* : ٢٦٩-٢٦٤/٣.
- (١٩) ابن جني : *الخصوص* ٣ - ٢٦٥ - بتصرف يسir -.